(٦)

الوثن الثالث: الفوضى الأخلاقية

لاشك أننا نعيش هذه الأيام فوضى أخلاقية انقلبت فيها قيمنا أخلاقنا رأسا على عقب رغم أن

من المعروف أن المجتمع المصرى طوال تاريخه من المجتمعات التى بنت حضارتها على الأخلاق والانضباط الأخلاقى المعتدل؛ فقد ابتدع المصريون على حد تعبير هنرى برستد ما يسمى بالضمير الإنسانى، ذلك الضمير الذى يرشد الإنسان إلى الخير ويحضه على فعله، ويرشده إلى الشر ويثنيه عن مواصلة طريقه. ومنذ فجر الحضارة المصرية القديمة وجدنا ذلك فيما عرف فى الحضارة المصرية القديمة بالنص المنفى، ذلك النص الذى يتحدث فيه مفكرو منف القديمة عن أصل الوجود ونشأة العالم الطبيعى عن طريق الكلمة التى تفوه بها الإله فكانت الأشياء وكان الوجود، وفى ذات الوقت أدركوا تسلسل الخلق والإيجاد فخلق الإله مع العالم ما يستحب من أفعال الناس وما يكره وخلقهم قادرين على التمييز بين الصواب والخطأ، بين الخير والشر، ومنهم من يسعد بفعل الخير ويلقى ثوابه، ومنهم من يحيد عن ذلك الطريق القويم ويحمل نفسه بالآثام فعليه أن يتوقع العقاب فى حياته الأخرى،

أقول منذ ذلك النص الموغل فى القدم، اكتشف المصريون معنى الأخلاق، ومعنى الضمير الإنسانى وأدركوا أن حياتهم الاجتماعية والسياسية أساسها السلوك المعتدل القويم والتحلى بكل الفضائل التى لخصوها فى كلمة (الماعت) كما أشرنا فى الفقرة السابقة؛ فهى على الصعيد الأخلاقى تعنى الاعتدال فى السلوك وضبط النفس والتحلى بكل القيم الأخلاقية الرفيعة (الصدق ـ الشجاعة ـ الكرم ـ حب الآخرين ـ العمل الجاد وإتقانه ـ حب الثقافة والكتابة وتقدير الكتاب والمفكرين ـ قيم الاعتدال فى تكوين الأسرة والتعاون، والمواطنة الصالحة.. إلخ).

إن كل هذه القيم وغيرها كثير حرص المصريون منذ فجر تاريخهم وحتى وقت قريب على التحلى بها واعتبارها عنوانًا لهويتهم ووقودًا يؤجج فعلهم الحضارى فى مواجهة أى قيم دخيلة وأى ثقافة غازية. ولكن ما حدث فى السنوات الأخيرة من أحداث وتطورات داخلية وخارجية ضرب هذا السلم القيمى وهذا التماسك الاجتماعى القائم على أساسه، ضربه فى مقتل لدرجة وجدنا معها هذه القيم وكأنها قد تبخرت وحل محلها قيمًا أخرى بديلة أصبحت هى الموجهة لسلوك الأفراد داخل هذا المجتمع العريق لدرجة دعت علماء النفس وعلماء الاجتماع إلى دراسة هذا الوضع المستجد وتحليله للوصول إلى تحليل دقيق للحالة التى نعيشها الآن؛ وقد أحسن عالم النفس الشهير د/ مصطفى سويف حينما لخص هذه الحالة فى كتابه «نحن والمستقبل» بعبارة ذات مغزى عميق حيث قال بتشوه الضمير العام للمصريين فى الخمسين سنة الأخيرة، حيث «أصاب المجتمع المصرى فيها تغيرات غير منتظمة ولا محسوبة، فأصبح يموج بمجموعات من القيم ليس بينها اتساق ولا تناسق، كما أنها تنطوى على

قدر كبير من التنكر لمنظومة قيمية أخرى كانت من قبل تنفرد بالساحة أو تكاد».

و قد أشارت دراسة تجريبية أجراها الزميل د/ أحمد زايد حول «خطاب الحياة اليومية فى المجتمع المصرى المعاصر» إلى مجموعة من القيم السلبية التى تسود حياة الإنسان المصرى المعاصر مثل سرعة إصدار الأحكام التقويمية السريعة حول مختلف الأمور والأشخاص، الحنين إلى الماضى بشكل رومانسى، ويميل الناس فيه إلى «الأنا مالية» أو اللامبالاة وعدم تحديد المواقف والرغبة فقط فى إرضاء المخاطب، والتطرف فى الاستجابة وسرعة الميل إلى النقيض كالانتقال من التصلب الشديد إلى التسامح الشديد، والميل الدائم إلى المبالغة والتضخيم والنزعة البطولية الاستعراضية. لقد أضحى المجتمع المصرى فى جميع طبقاته وبمختلف طوائفه مشغولًا وملتحفًا بقيم استهلاكية تميل إلى الإشباع الشهوانى ـ الجسدى وليس إلى إشباع العقول والاستمتاع بلذة الوصول ـ كما فى المجتمعات المتقدمة ـ إلى كشف علمى جديد أو ابتداع آلة جديدة أو ما شابه ذلك.

ولا شك أن هذا الاهتمام بالإشباع المادى لرغبات الجسد وجعله الغاية من السلوك هو ما تسبب فى واقع الأمر فى قلب القيم التقليدية للمجتمع المصرى رأسًا على عقب، حيث إن ذلك السلم التقليدى للقيم كان مبنيًا على عقيدة دينية وسطية معتدلة ترى فى الإشباع المعنوى وفى السلوك الأخلاقى القويم هدفًا أسمى من كل ما يخص الجسد وإشباع رغباته وشهواته. إن ذلك اللهاث وراء هذه الإشباعات المادية جعل القيم الأخلاقية الإيجابية تنزوى بعيدًا؛فالقيم الأخلاقية كما يقول علماء

الاجتماع ما هى إلا انعكاس للأسلوب الذى يفكر به الناس فى سياق ثقافى معين وفى فترة زمنية محددة، وحينما تغير الأسلوب التقليدى لتفكير الناس من ذلك الأسلوب الذى كانوا يضعون فيه القيم المعنوية من صدق وأمانة وإخلاص فى العمل ووفاء بالوعود والعهود.. الخ. فوق كل اعتبار ويعتبرونها غاية فى ذاتها يريدون الوصول إليها فى سلوكهم الخاص والعام ويعايرون بعضهم البعض إذا لم يلتزموا بها! أقول لما تغير هذا الأسلوب من التفكير الأخلاقى الذى يعلى من شأن القيم المعنوية، إلى ذلك الأسلوب من التفكير الذى يضع الإشباع المادى واللذى فوق كل اعتبار، انهار سلم القيم التقليدى وضاعت القيم المعنوية وأصبح من يتبعونها ويربون أولادهم عليها هم الآن الشواذ فى المجتمع وهم من ثم من لا يستطيعون التعامل مع الآخرين على أساسها، بل لقد أصبح هؤلاء الملتزمون بهذه القيم المعنوية التقليدية مثار سخرية ونقد من الآخرين!

وبدا التناقض واضحًا بين فئة يغلب على سلوكها الالتزام بهذه القيم المعنوية وهى الفئة الأقل عددًا والأضعف تأثيرًا، وبين فئة يغلب على سلوكها التشبث بتلك القيم المستحدثة اللذية ـ المادية ـ الشهوانية التى تسعى إلى الوصول إلى أقصى إشباع بأقل مجهود وبأقل تكلفة وفى أسرع وقت. وهذا التناقض بين سلوك الفئة الثانية وهى التى أصبحت الأكثر عددًا والأقوى تأثيرًا جعل المجتمع يسير نحو فوضى أخلاقية نعانى منها.

وبالطبع فإن هذه الفوضى الأخلاقية التى أصابت البنية الأخلاقية للمجتمع المصرى تحتاج إلى جهد كبير من كل من يعنيهم مستقبل هذا المجتمع لأن الواقع خطير، وطريق الإصلاح يبدأ هنا من ذات كل فرد من أفراد المجتمع. والبدء من الذات مسألة غاية فى الصعوبة لأنه يحتاج

لدرجة عالية من الوعى لدى كل فرد بأن عليه أن يعيد بناء ذاته الأخلاقية وفق قيم وتقاليد لم يعد يهمه العودة إليها! ومن هنا فنقطة البدء لابد وأن تكون من خلال إعداد برامج جديدة تركز على القيم الأخلاقية التى يراد إكسابها للناس مرة أخرى بشرط ألا تكون هذه البرامج بلغة خطابية مكشوفة، بل تكتب بذكاء ويستضاف فيها قادة الرأى والمفكرين والعلماء الذين يعتبرون قدوة صالحة فى مجال تخصصهم.

وهنا تبرز الخطوة الثانية؛ فبعد الاهتمام بدور الإعلام فى هذا المجال، يأتى الاهتمام بإبراز القدوة الحقيقية والتركيز على إعادة بنائها لدى أفراد المجتمع؛ فليس من شك أن القدوة الحقيقية قد غابت عن مجتمعنا منذ فترة طويلة لدرجة أصبحت معها قدوة شبابنا الآن هم لاعبو الكرة والفنانين والفنانات المستهترين والمستهترات وأصبحوا هم قادة الرأى والضيوف الأكثر حظوة والأهم فى فقرات أجهزة الإعلام المختلفة ومن ثم لدى الشباب فى مجتمعنا. والحقيقة التى غابت عنا طوال الفترة الطويلة الماضية هى أن تغيير القدوة أصبح ضرورة ملحة ولابد أن نقصد إليها قصدًا، فإذا ما أردنا لمجتمعنا أن يعود إلى سابق عهده من تقدير لقيم العلم والعطاء والإبداع فلابد أن يكون ضيوف برامجنا الإذاعية والتليفزيونية هم العلماء الأكفاء فى معاملهم وداخل معاهدهم العلمية، والمفكرون فى مكتباتهم، والعمال العاملون فى مصانعهم، والفلاحون الذين يكدون فى حقولهم. إن إعلامنا لابد أن يعبر عن حياة أبناء الوطن الذين يخلصون فى أداء عملهم والذين عليهم يبنى المجتمع تقدمه ويجنى خيراته، فإذا ما عدنا إلى تقديس قيمة العمل والعطاء، وإلى احترام العلم والعلماء، واحترام المفكرين والمبدعين وأصبحوا هم القدوة الحقيقية

لشبابنا، سيسعى هؤلاء الشباب إلى تقليدهم ومن ثم سيكون من بينهم العالم المبدع، والمفكر النابغة، والعامل الجاد والصانع الذى يتقن صنعته، والزارع الذى يتفنن فى العناية بحقله ومحصوله.. الخ.

إن الطريق إذن إلى إعادة سلم القيم إلى ما كان عليه يبدأ من الاقتناع بوجود الخلل واكتشاف موطن الداء، ثم العمل الجاد على كافة الأصعدة السياسية والإعلامية والاجتماعية لخلق هذه القدوة الصالحة الحقيقية أمام شبابنا، وشيئًا فشيئًا ستنزوى القدوة الفاسدة بما تمثله من أخلاقيات سلبية وقيم استهلاكية زائفة ويستعيد المجتمع عافيته عبر سواعد أبنائه الذين اتخذوا من الحياة طريقًا للجد والاجتهاد، ومن العقل أداة للتأمل والإبداع، ومن الأجساد القوية أدوات للتنفيذ والإتقان فى كل عمل يدوى يقومون به.